تعلمت من يوسف عليه السلام

تلخيص المحاضرة السابعه

الرؤيا العجيبة

المقدمة

ـ تتناول هذه الآيات الكريمة من سورة يوسف تأكيد يوسف عليه السلام على أن الحكم لله وحده، حيث يربط بين الحكم والعبادة، ويبرز أن التحاكم إلى شرع الله جزء من توحيده، كما يوضح الفارق بين الحكم الكوني والحكم الشرعي، ويوضح أهمية الامتثال لأحكام الله في حياة المؤمن.

أولًا: تقسيم الحكم الإلهي

١ـ الحكم الكوني: هو تدبير الله المطلق للكون، فلا يقع شيء إلا بمشيئته، كخلق الكائنات، وقدره في الأرزاق والأحداث. وهو أمر متفق عليه بين المؤمنين، حيث قال تعالى: { إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ }(يس: ٨٢).

٢ـ الحكم الشرعي: هو الأوامر والنواهي التي أنزلها الله لتكون منهاجًا للناس في عباداتهم ومعاملاتهم. وهو ليس كونيًا، إذ قد يأمر الله بشيء ولا يفعله الناس، كالأمر بالصلاة والزكاة، ومع ذلك هناك من يعصي هذه الأوامر.

ثانيًا: النزاع في الحكم الشرعي

المشركون في كل العصور لم يعارضوا الحكم الكوني، لكنهم أنكروا الحكم الشرعي، فشرّعوا لأنفسهم أحكامًا تخالف ما أنزل الله، كما قال تعالى عنهم: { وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ } (الأنعام: ١٣٨) ، ووصفهم بالافتراء والكذب.

ثالثًا: التحاكم إلى الله عبادة

يربط يوسف عليه السلام الحكم بالعبادة، فيقول: { إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ } (يوسف: ٤٠)، مما يدل على أن القبول بحكم الله جزء من التوحيد، كما قال تعالى: { وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ } (الأحزاب: ٣٦).

رابعًا: رفض التحاكم لغير الله

- التحاكم إلى غير شريعة الله يُعد خضوعًا لغيره، وكأنما عبد غيره، فكما لا يجوز السجود لغير الله، لا يجوز قبول شرع غيره، قال تعالى: { وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ } (الشورى: ١٠).
- إن الإيمان لا يكتمل إلا بالإقرار بحكم الله في الكون والشرع معًا، فلا يقتصر التوحيد على الاعتراف بأن الله هو الخالق المدبر، بل يجب الامتثال لأحكامه في كل نواحي الحياة، فالإسلام استسلام كامل لله، قولًا وعملًا وتحاكمًا .
- يؤكد الله تعالى في كتابه أن الإيمان الحق لا يكتمل إلا بالاحتكام إلى شرعه والتسليم المطلق لحكمه دون تردد أو حرج. فمن يشرّع مع الله، أو يستبدل حكمه بحكم البشر، فقد وقع في الشرك، كما جاء في قوله تعالى: { أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ } (الشورى: ٢١).
- ويحذر الله من المنافقين الذين يدّعون الإيمان لكنهم يرفضون التحاكم إلى شرعه، مفضلين القوانين الوضعية على ما أنزله الله، وهؤلاء قد وصفهم الله في قوله: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا } (النساء: ٦١).
- وبذلك، يصبح الاعتقاد بأن شرع الله هو الحق المطلق من صميم العقيدة والتوحيد، حتى لو لم يكن الفرد متورطًا في التشريعات أو القضاء. فالواجب على كل مسلم أن يعتقد يقينًا أن الحكم لله وحده، ولا يجوز تبديله أو تغييره وفق الأهواء أو التطورات الزمنية، لأن { إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ } (يوسف: ٤٠)
- وفي قصة يوسف عليه السلام، يتجلى بُعدٌ إنساني رائع، حين فسّر رؤيا صاحبيه في السجن دون تحديد من منهما سينجو ومن سيُصلب، رغم وضوح الأمر. فقد اختار التلميح بدل التصريح، رحمةً بصاحب المصير المؤلم، ليبقى لديه بصيص أمل، إذ إن "انتظار البلاء بلاء قبل البلاء"، وتوقع المصائب قد يكون أشد وطأة من وقوعها.
- وهكذا، يعلمنا يوسف عليه السلام أن الرفق بالمشاعر أحيانًا أولى من الصراحة المطلقة، وأن الحكمة في الكلام قد تخفف من وقع الأقدار المحتومة.

رحمة الإنسان وإخفاء البلاء عن الضعفاء: دروس من قصة يوسف عليه السلام

- الرحمة والشفقة من أسمى القيم الإنسانية، وتتجلى في مواقف كثيرة، منها عدم مواجهة الشخص الضعيف بما ينتظره من بلاء إذا لم يكن هناك فائدة من إخباره. فالطبيب، حين يخبر أبناء المريض بخطورة حالته، فإنهم بدافع الرحمة لا يُشعرونه بحقيقة مرضه، بل يطمئنونه ويحثونه على العلاج. هذه ليست خداعًا، بل شفقة ورحمة تخفف عن المريض وطأة المرض. وكذلك كان يوسف عليه السلام في موقفه مع صاحبي السجن.

تعبير الرؤى عند الأنبياء: يقين لا يحتمل الخطأ

- عندما فسر يوسف عليه السلام رؤيا صاحبي السجن، حسم الأمر قائلاً: { قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ } . وتفسير الأنبياء يختلف عن تفسير غيرهم، فهو وحي من الله، لا مجال فيه للخطأ، بعكس البشر العاديين الذين قد يصيبون أو يخطئون في تأويل الأحلام.
- وقد أكد النبي ﷺ هذا المفهوم بقوله: "الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ". أي أن الرؤيا تظل معلقة حتى تُفسر، فإذا فُسرت تفسيرًا صحيحًا، كان ذلك سببًا في وقوعها. لذا يُنصح من يرى رؤيا سيئة ألا يخبر بها أحدًا، بل يستعيذ بالله منها، في حين أن الرؤيا الحسنة يمكن أن تُعرض على شخص يُؤتمن على تفسيرها.

بلاغة يوسف عليه السلام في التعامل مع صاحبي السجن

- عندما فسر يوسف عليه السلام رؤيا الرجلين، لم يُخبر الذي سيُعدم بذلك علنًا، بل أبلغ الآخر الذي سينجو سرًا حتى لا يزيد من معاناة المحكوم عليه. ثم أوصى الساقي الذي سينجو بأن يذكره عند الملك لعله يُنصف ويخرج من السجن.
- معنى "الظن" في القرآن الكريم في قوله تعالى: { وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا }، جاءت كلمة " ظَنَّ " بمعنى اليقين، وليس بمعنى التوقع أو الشك. فالقرآن يستخدم كلمة " ظَنَّ " بعدة معانٍ، فقد تعني العلم اليقيني كما في: { ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ } وقد تعني الظن الراجح، أي الاحتمال القوي، كما قد تعني الظن المرجوح أو الوهم كما في: { إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ } أي التوهم الذي لا أساس له.

نسيان الساقي وتأخير الفرج

- بعد أن نجا الساقي من السجن، نسي وصية يوسف عليه السلام ولم يذكره عند الملك، فلبث يوسف في السجن بضع سنين، قيل إنها خمس أو سبع سنوات. لكن هذا التأخير لم يكن عبثًا، بل كان جزءًا من تدبير الله لحكمة بالغة، حتى يأتي الوقت المناسب لخروجه بكرامة وسلطان، لا بوساطة بشرية زائلة.

دروس مستفادة

١- الرحمة تقتضي ألا يُواجه الضعيف ببلائه إذا لم يكن في ذلك فائدة.

٢- تفسير الأنبياء للرؤى يقين لا يحتمل الخطأ، بعكس غيرهم.

٣- الرؤيا السيئة يجب كتمانها، أما الحسنة فيُطلب تفسيرها ممن يُؤتمن.

٤- البلاغة في الحديث ومراعاة مشاعر الآخرين من صفات الأنبياء.

٥- تأخر الفرج قد يكون لحكمة إلهية أعظم مما نظن.

- بهذه الدروس العظيمة، يتضح لنا أن قصة يوسف عليه السلام ليست مجرد سرد تاريخي، بل هي كنز من العبر والحكم التي تهدي النفوس إلى الحكمة والصبر والثقة بتدبير الله.

براءة يوسف عليه السلام من اللوم في طلب العون

- تُثار أحيانًا تساؤلات حول ما إذا كان يوسف عليه السلام قد أخطأ حين طلب من الساقي الناجي أن يذكره عند الملك، وهل كان ذلك دليلًا على ضعف في التوكل على الله؟ يستدل بعض المفسرين بقوله تعالى: { فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ } (يوسف: ٤٢) ، ليقولوا إن " فَأَنسَىٰهُ " تعود على يوسف، بمعنى أن الشيطان أنساه ذكر ربه، فعاتبه الله على ذلك، مما أدى إلى بقائه في السجن فترة أطول.

- لكن عند التأمل في الآية وسياق القصة، نجد أن هذا التفسير ليس هو الأصح، بل هناك رأي آخر أكثر اتساقًا مع المنطق وأصول العقيدة، وهو ما سنوضحه بتفصيل مستند إلى قواعد شرعية واضحة.

أولًا: هل كان طلب يوسف عليه السلام مخالفًا للتوكل؟

- التوكل على الله لا يعني ترك الأخذ بالأسباب، بل هو الجمع بين العمل والسعي وبين الاعتماد القلبي الكامل على الله. وقد عرّف العلماء التوكل بأنه: "الأخذ بالأسباب المشروعة مع عدم الاعتماد عليها، بل على الله وحده".

تطبيق ذلك في حياة يوسف عليه السلام:

- كان يوسف في السجن ظلمًا، ووجد فرصة سانحة لعرض قضيته أمام من بيده الحل، فطلب من الساقي الناجي أن يذكره عند الملك.
- هذا الفعل لا يُعد تقليلًا من التوكل، بل هو أخذ بالأسباب المشروعة لدفع الضرر عنه، كما أن طلب الشفاعة أمر مشروع، بل ورد عن النبي ﷺ قوله: " اشْفعوا تُؤجروا ".
- لمّا خرج الساقي ونسي أمر يوسف، لم يضطرب يوسف، ولم يُظهر سخطًا أو جزعًا، بل استمر في تسليم أمره لله، مما يدل على كمال توكله.

مقارنة مع النبي محمد ﷺ:

- في الهجرة، أخذ النبي ﷺ بكل الأسباب الممكنة، من التخطيط الدقيق، واتخاذ مسارات غير متوقعة، والاختباء في غار ثور، ثم التوكل على الله، فقال لأبي بكر: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما".
- لمّا اقترب المشركون من الغار، لم يضطرب النبي ﷺ، وهذا هو التوكل الحقيقي: الأخذ بالأسباب دون تعلّق بها.

ثانيًا: مراتب أقدار الله وموقف الإنسان منها

لفهم موقف يوسف عليه السلام، لا بد من معرفة كيفية تعامل الإنسان مع أقدار الله، وهي تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

١- قدر لا يمكن تغييره:

- مثل : الجنس، الطول، العرق، وبعض الأمراض المزمنة.
- الموقف: التسليم والرضا والاحتساب.

٢- قدر يمكن تغييره بالأخذ بالأسباب:

- مثل: المرض (بالعلاج)، الفقر (بالسعي والعمل)، السجن ظلمًا (بالدفاع عن النفس أو طلب العون).

- الموقف: السعي في تغييره وفق السنن الكونية، وهذا ما فعله يوسف عليه السلام عندما طلب من الساقي أن يذكره عند الملك.

٣- قدر يجب تغييره:

- وهو المعصية.

- الموقف : التوبة الفورية وعدم الاستسلام للذنب بدعوى أنه قدر محتوم.

يوسف عليه السلام كان في موقف يندرج تحت النوع الثاني، أي قدر يمكن تغييره، وقد سعى في ذلك بطريقة مشروعة، فلا وجه للعتاب عليه.

ثالثًا: لماذا بقي يوسف في السجن بضع سنين؟

إذا لم يكن في طلب العون أي خطأ، فلماذا ذكر الله أن يوسف عليه السلام{لَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ}؟

التفسير الأرجح أن الضمير في { فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ } يعود على الساقي وليس على يوسف، أي أن الشيطان أنسى الساقي أن يذكر يوسف عند الملك، وليس أن يوسف نسي ذكر الله.

- هذا المعنى هو الأشهر في التفاسير، وهو الموافق للمنطق، إذ كيف يُتصور أن يوسف عليه السلام، الذي كان نموذجًا في الصبر والإيمان، ينسى ذكر الله؟
- لو كان السبب هو خطأ من يوسف، فلماذا لم يُعاقب مباشرة بعد طلبه، بل كان التأخير بسبب نسيان الساقي؟

إذن، بقاؤه في السجن لم يكن عقابًا له، بل كان جزءًا من تدبير الله له، ليخرج في الوقت المناسب ويصبح عزيز مصر.

حكمة القصة وعبرة التوكل الحقيقي

- الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، بل هو جزء منه، كما ظهر في موقف يوسف عليه السلام.
- ليس كل تأخير هو عقوبة، بل قد يكون لحكمة إلهية، كما حدث مع يوسف حين تأخر خروجه ليكون ذلك في الوقت الذي سيؤدي إلى رفعته وتمكينه.

- عند مواجهة الأقدار، يجب علينا معرفة نوعها والتعامل معها وفق الشرع: الصبر والتسليم فيما لا يمكن تغييره، السعي في تغيير ما يمكن تغييره، والتوبة مما يجب تغييره.

- بهذا يتضح أن يوسف عليه السلام لم يُعاقب على طلب العون، بل كان هذا الطلب مشروعًا، ونتيجة تأخر استجابة الساقي كانت جزءًا من تدبير الله لحكمة أعظم.

النسيان.. سلاح الشيطان في معركته مع الإنسان

- الشيطان لا يحتاج إلى أسلحة كثيرة، فخطته الكبرى تُختصر في كلمة واحدة: النسيان. أن يُنسيك ذكر الله، يُنسيك آخرتك، بل حتى مصالحك الدنيوية. إنها حيلة قديمة، استخدمها مع آدم عليه السلام عندما أنساه العهد، واستمر في استخدامها مع بني آدم حتى يومنا هذا.

- تأمل قوله تعالى: { فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ } (يوسف:٤٢)، من الذي نسي؟ ليس يوسف عليه السلام، بل الساقي، لأن الشيطان لا يتسلط على قلوب الأنبياء، وإنما يغوي من كانت نفسه مستعدة للنسيان والضعف.

- النسيان هو أداة الشيطان لإبعادك عن الطاعات، عن القرآن، عن الصلاة، عن الخير. قد تُفوت صلاةً لأنك انشغلت، أو تتجاهل ذكر الله لأن هموم الدنيا ألهتك. لكن الحل واضح: الذكرى. قال تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } (الذاريات :٥٥)

- القرآن وحي متكرر، والآيات تُعاد لنظل متيقظين. الدروس والمواعظ ليست ترفًا، بل هي سلاحك ضد الغفلة. استمع، اقرأ، تدبر، وابقَ في دائرة التذكر حتى لا تقع فريسة للنسيان الذي يريد الشيطان أن يسجنك فيه.

السجن.. محنة أم منحة؟

- حين نقرأ قول الله تعالى: { فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ } (يوسف:٤٢)، ندرك أن يوسف عليه السلام قضى سنوات طويلة في السجن، قيل إنها خمس أو سبع أو ربما تسع سنوات. لكنها لم تكن سنوات من الذل والانكسار، بل كانت خلوة إيمانية، كانت عزلة عن الفتن، كانت محطة إعداد لقادم أعظم.

- لو تأملنا حياة يوسف عليه السلام، لوجدنا أن الله كان يحميه في كل مرحلة. عندما بدأت المكائد تُحاك له في بيت أبيه، نقله الله إلى بيت العزيز، فلما اشتدت عليه الفتنة هناك، نقله الله إلى السجن. لم يكن السجن عقوبة، بل كان قشرة تحيط به ليكتمل، ليخرج أقوى وأطهر، ليصبح عزيز مصر.
- في السجن، تحرر يوسف عليه السلام من كل شيء، من قيود العادات، من التقاليد، من الشهوات، بل من الدنيا كلها. كأنه كان في اعتكاف طويل، والاعتكاف يعلّمك أنك كنت أسيرًا لما ظننته ضروريًا، لكنه في الحقيقة زائل. في البداية، يشعر المعتكف بالضيق، لكنه في النهاية يدرك أنه تحرر، كذلك كان حال يوسف في السجن، حتى استوت عنده القصور والزنزانة، وأصبح الملك عنده لا يساوي شيئًا.
- وحين جاءه الداعي يقول له إن الملك يطلبه، لم يهرع للخروج، بل قال: { ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ } . لم يكن يوسف مستعجلًا، لأنه أدرك أن اختيار الله له أفضل من اختياره لنفسه. لو ذُكر يوسف مبكرًا، لربما عاد إلى خدمة الملك، لكن الله أراد له أن يخرج عزيزًا، لا منة لأحد عليه، بل هو صاحب المنة على الجميع.

الدروس المستفادة:

- السجن ليس مذلة للمؤمن، بل قد يكون حماية وإعدادًا لمكانة أعظم.
- اختيار الله لعبده خيرٌ من اختياره لنفسه، فارضَ بقدره.
- لا تحزن إن طال البلاء، فربما يكون طريقك إلى العز والتمكين، كما خرج يوسف من السجن ليُقال له: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ }.

تدبير الله العجيب في قصة يوسف عليه السلام

- كانت رحلة يوسف عليه السلام مليئة بالابتلاءات والتقلبات العجيبة، لكنه كان دائمًا في رعاية الله، ينتقل من محنة إلى أخرى، لكن لكل محنة حكمة وغاية. دخل السجن ظلمًا، لكنه لم يكن مجرد سجن، بل كان مدرسة إيمانية وميدانًا للعبادة والتدبر، وخلوة مع الله أعدته لمهمته الكبرى.

الرؤيا التى غيّرت مسار الأحداث

- في هذه المرحلة، شاءت إرادة الله أن يرى الملك رؤيا أرقته، حيث رأى سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف، وسبع سنابل خضر وأخرى يابسات. لم تكن هذه مجرد رؤيا عادية، بل كانت مفتاحًا لخروج يوسف من السجن وإعلائه في مقام الحكم. حاول مستشارو الملك تفسيرها، لكنهم فشلوا، فأجابوا بأن الرؤيا مجرد "أضغاث أحلام"، مما زاد من إصرار الملك على معرفة تفسيرها، وهو أمر غير مألوف، إذ أن كثيرًا من الناس يرون أحلامًا ولا يهتمون بتفسيرها. لكن إلحاح الملك كان جزءًا من تدبير الله لرفع شأن يوسف عليه السلام.

التدبير الإلهي في تذكر الساقي ليوسف

- من أعجب مشاهد هذه القصة أن ساقي الملك، الذي كان مسجونًا مع يوسف عليه السلام، سمع حديث الملك عن الرؤيا، فخطر له على الفور يوسف. لكن العجيب أنه لم يتذكره طيلة السنوات التي قضاها خارج السجن، وكأنه كان منتظرًا اللحظة المناسبة، حتى جاء هذا الموقف فتذكره فجأة. قال للملك بثقة: { أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ }، وطلب الإذن للذهاب إلى يوسف ليسأله عن التفسير.

حكمة يوسف وكرامته في السجن

- عندما جاء الساقي إلى يوسف عليه السلام، لم يشترط الخروج مقابل تفسير الرؤيا، بل قدم التفسير كاملًا دون مقابل، وهذا دليل على صدقه وإخلاصه لله، فلم يكن يسعى لمصلحة شخصية. فسّر يوسف الرؤيا بأنها تعني سبع سنوات من الخير يعقبها سبع سنوات من القحط، ثم يأتي بعد ذلك عام فيه الغيث والرخاء. لكن الأهم من ذلك أنه قدم للملك خطة اقتصادية لمواجهة الأزمة، فأثبت أنه ليس مجرد مفسر أحلام، بل رجل دولة قادر على إدارة الأزمات.

إصرار يوسف على إثبات براءته قبل الخروج

- بعد أن عاد الساقي إلى الملك وأخبره بالتفسير، أدرك الملك أن هذا التفسير لا يمكن أن يكون من عقل ساقي خمر، فطلب إحضار يوسف. لكن يوسف لم يخرج مباشرة، بل أصر على أن يُحقق في قضيته أولًا، ليُثبت براءته قبل أن يغادر السجن، فقال: { ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ

ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ }. وهنا تجلّت كرامته وعزته، فلم يكن ليقبل الخروج بعفو ملكي دون رد اعتباره.

نهاية الابتلاء ورفعة يوسف

- بعد التحقيق، اعترفت امرأة العزيز بالحق، وقالت: { ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ }، فظهرت براءة يوسف عليه السلام، ليخرج ليس فقط من السجن، بل ليصبح عزيز مصر. كان السجن يبدو وكأنه نهاية مؤلمة، لكنه كان في الحقيقة طريقًا إلى التمكين.

دروس عظيمة من القصة

١. **تدبير الله يفوق كل الأسباب:** فمن كان يظن أن منام الملك سيكون مفتاح خروج يوسف من السجن؟

٢. **قد يكون حرمان غيرك تدبيرًا لك:** فقد حُرم مستشارو الملك من تفسير الرؤيا، ليكون ذلك سببًا في وصول يوسف عليه السلام.

٣. **الصبر على البلاء يقود إلى العزة:** فكما قال الله: {وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ}

٤. **لا تتعجل الفرج، فالله يُمهّد لك الطريق:** يوسف لم يسعَ للخروج بأي وسيلة، لكن الله أخرجه بطريقة فيها عزته وكرامته.

٥. **الابتلاءات قد تكون أبوابًا للنعم:** السجن، الذي ظنه الجميع محنة، كان في الحقيقة تمهيدًا ليوسف ليحكم مصر.

- إنها قصة مليئة بالعبر، تُعلمنا أن الله يدبر الأمور بحكمة، وأن كل محنة قد تكون طريقًا إلى نعمة، فقط علينا الصبر والثقة في الله.

الساقي بين الانتهازية وإحسان يوسف عليه السلام

- بعد أن رأى الملك رؤياه المقلقة، وقف مستشاروه عاجزين عن تفسيرها، حتى تذكر ساقي الملك فجأة يوسف عليه السلام، ذلك الصديق الذي نسيه طيلة السنوات الماضية. قال للملك بثقة زائفة: {أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ }، وكأنه هو صاحب العلم، بينما لم يكن سوى وسيط انتهازي وجد

في الموقف فرصة للظهور.لم يطلب سوى مهلة قصيرة ليذهب إلى السجن ويعود بالإجابة، دون أن يبدي أي ندم أو اعتذار على نسيانه ليوسف كل تلك المدة. لم يقل: "سامحني، لقد نسيتك"، لم يحاول حتى تبرير موقفه. بل دخل على يوسف مباشرة، مستخدمًا لقبًا يعرف أنه سيفتح له باب الإحسان: { يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا } . لم يذكر الملك، ولم يقل إن الرؤيا تخصه، خشية أن يضع يوسف شرطًا للخروج أو أن يفقد هو فرصة التقرب من الملك.

- ورغم ذلك، لم يعاتبه يوسف عليه السلام، لم يسأله لماذا نسيه، لم يؤنبه، بل أجابه مباشرة بحلم المصلحين: أن يُحسن حيثما وُضع، وأن ينفع الناس ولو خانه الأقربون. هذه عظمة يوسف، وهذه رحمة الله التي أراد أن تكون المنّة له وحده، فلا يُنسب الفضل في نجاته لأحد سوى تدبير الله العجيب.

حكمة يوسف عليه السلام : دروس في الإيثار والإصلاح

- حينما استعصى على أصحاب الملك تفسير رؤيا الملك، أنقذوا البلاد دون أن يدركوا، بكلمة بسيطة: "لا ندري". فحين يعترف الإنسان بجهله، فإنه يفتح الباب للوصول إلى العلم الصحيح. أما من يتكلم بغير علم، فإنه يضلل الناس ويوقف البحث عنده، مما يؤدي إلى قرارات خاطئة قد تجر الويلات. الاعتراف بعدم المعرفة هو في حد ذاته خدمة عظيمة، لأنه يدفع السائل للبحث عن الإجابة الصحيحة من أهل الاختصاص.
- وحينما احتاج الساقي إلى يوسف عليه السلام، هرع إليه مستعجلًا، مناديًا: { أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ } لم يعتذر عن نسيانه، ولم يبرر تقصيره، بل جاء مباشرة بطلبه، لأنه كان واثقًا من إحسان يوسف عليه السلام. وهنا نرى سلوكًا بشريًا متكررًا؛ فحينما يحتاج الناس إليك، يسرفون في الثناء والمديح، وقد ينسبون إليك ألقاب العظمة والمكانة. ولكن لا ينبغي للإنسان أن يغترّ بهذه الكلمات، فهي غالبًا لا تعبر عن حقيقة ثابتة، بل عن حاجة عابرة.
- لكن لماذا أجاب يوسف عليه السلام بسرعة ولم يعاتب الساقي على نسيانه؟ كان بإمكانه أن يشترط خروجه من السجن قبل أن يفسر الرؤيا، لكنه لم يفعل. لماذا؟ لأن يوسف عليه السلام أدرك فور سماع الرؤيا أنها ليست حلمًا عاديًا، بل رؤيا مصيرية تتعلق بمستقبل البلاد. لقد فهم ببصيرته النبوية أن من رأى هذه الرؤيا شخص ذو مكانة عظيمة، غالبًا الملك، لأنها تتعلق

بمجاعة تمتد لسنوات طويلة. كما أن ارتباك الساقي ولهفته على التفسير كانا دليلًا آخر على خطورة الأمر، مما جعل يوسف عليه السلام يضع مصلحة الأمة فوق مظلمته الشخصية.

- لم يفكر في الانتقام، لم يطالب بخروجه من السجن أولًا، ولم يضيع الوقت في اللوم والعتاب، بل أسرع إلى الحل قائلاً: { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ } . لم يكتفِ بالتفسير، بل أضاف النصيحة والتوجيه العملي لإنقاذ البلاد من المجاعة، مما يدل على نظرته العميقة لمسؤولياته.
- وهنا نتعلم درسًا عظيمًا: المصلح الحقيقي هو الذي يقدم مصلحة الأمة على مصلحته الشخصية. فلو كان يوسف عليه السلام قد فكر فقط في نفسه، لكان طالب بحريته أولًا، لكنه كان يرى الصورة الكبرى، ويضع الخير العام فوق مكاسبه الفردية. هذه هي عقلية الأنبياء، عقلية القادة العظماء، الذين لا يساومون على الحق ولا يجعلون قضاياهم الشخصية حاجزًا أمام خدمة الناس.
- هذا المشهد يعكس فلسفة الإصلاح الحقيقية: أحيانًا يكون الإنسان مظلومًا، لكنه يضحي بحقوقه الشخصية من أجل مصلحة أعظم. يوسف عليه السلام كان بإمكانه أن يصر على خروجه قبل تقديم المساعدة، لكن هل كانت البلاد ستتحمل تأخير الحل؟ هل كان الملك سينتظر مساومة؟ ربما كان سيبحث عن مفسر آخر، وربما كان تفسير آخر خاطئ سيقود البلاد إلى كارثة.
- في النهاية، نجح يوسف عليه السلام في إنقاذ مصر من مجاعة محققة، ليس لأنه كان الأقوى أو الأكثر نفوذًا، ولكن لأنه كان الأكثر حكمةً وإيثارًا. فالإصلاح لا يعني فقط تحقيق العدل، بل يعني أيضًا تقديم المصلحة العامة ولو على حساب الظلم الشخصي، إذا كان ذلك سيؤدي إلى خير أعظم.
- وهكذا، يعلمنا يوسف عليه السلام أن القائد والمصلح ليس من يبحث عن مكاسبه الشخصية، بل من يرى أبعد من ذلك، ويعمل من أجل الصالح العام، حتى وإن كان الثمن مظلمة يتحملها بصبر الأنبياء.

حكمة يوسف عليه السلام : دروس في التدبير والإصلاح

- عندما فسر يوسف عليه السلام رؤيا الملك، لم يكتفِ بالتفسير فحسب، بل أضاف إليها توجيهات اقتصادية وخطة لمواجهة الأزمة القادمة. قال: { إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ } (يوسف: ٤٨)، أي احرصوا على تقليل الاستهلاك وعدم الاغترار بكثرة المحصول، لأن السنين العجاف قادمة. ثم أكد: { ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٌ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ } (يوسف: ٤٨)، مشيرًا إلى أهمية التخزين الجيد، حيث لن يبقى إلا القليل إذا أُحسن حفظه.
- لكن المفاجأة الكبرى كانت في الآية التي لم تكن ضمن الرؤيا الأصلية: { ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ } (يوسف: ٤٩)، هذه البشارة لم تأتِ في الرؤيا التي رواها الملك، بل جاءت بوحي من الله إلى يوسف عليه السلام، ليمنح الناس الأمل بعد الشدة. في هذا العام، سينزل الغيث، وستفيض الأنهار، وسينبت الزرع بوفرة، حتى يتمكن الناس من إنتاج العصير والزيت والحليب.
- ما يلفت الانتباه هنا هو كرم يوسف عليه السلام وصبره. كان بإمكانه الاكتفاء بتفسير الرؤيا فقط، لكنه لم يفعل. قدم للملك:

١. تفسيرًا دقيقًا للرؤيا.
٢. خطة اقتصادية لمواجهة الأزمة
٣. تحذيرات من سوء التدبير والإسراف.
٤. إضافة بشرى لم ترد في الرؤيا الأصلية، لكنها ستثبت صحتها لاحقًا، مما يعزز مصداقيته.

- لم يفكر يوسف عليه السلام في مصلحته الشخصية، لم يطلب الخروج من السجن أولًا، ولم يشترط أي شيء. كان همه الأول هو إنقاذ الأمة من كارثة محققة، ولو كان ذلك على حساب بقائه في السجن. وهذا ما عجب منه النبي محمد ﷺ حين قال: "لقد عجبتُ من يوسفَ عليه السلام، وصبرِه وكرمِه. والله يغفر له حين سُئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترط أن يخرجوني."

- وهكذا، يعلمنا يوسف عليه السلام درسًا عظيمًا في الإيثار، إذ كان بإمكانه أن يشترط خروجه، لكنه لم يفعل. كان يفكر بعقلية المصلح، الذي يقدم مصلحة الأمة على مصلحته الشخصية. كما أن إضافته للبشارة الإلهية كانت المفتاح الذي جعل الملك يشك في الساقي، ويدرك أن يوسف عليه السلام ليس مجرد مفسر أحلام، بل رجل ذو علم وحكمة.

دروس مستفادة:

١- لا تغتر بكثرة الدخل، فالأيام لا تدوم على حال، وكن حريصًا على الادخار.

٢- في الأزمات، الحل يكون بمضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك، كما أوضح يوسف عليه السلام.

٣- المصاعب قد تحمل في طياتها الخير، كما أن السبع الشداد كانت سببًا في نجاة يوسف عليه السلام.

٤- الفرج يأتي بعد الشدة، وهذه سنة الله في الكون.

٥- إن كان الله يغيث من لا يعبده، فكيف بمن يتوكل عليه ويدعوه؟

- وهكذا، نجد في قصة يوسف عليه السلام نموذجًا للمصلح الحقيقي، الذي يضع المصلحة العامة فوق كل اعتبار، ويضحي براحة نفسه من أجل نجاة الآخرين، حتى وإن تحمل في سبيل ذلك الظلم والجحود.